المحاضرة الرابعة :رسالة الغفران لأبي العلاء المعري:

1-أبو العلاء المعري :

هو خاتمة شعراء العصر العباسي الثالث ،كما كان شبيهه أبو الطيب فاتحته. ونعم الفاتحة والخاتمة ، وهو الشاعر الحكيم الفيلسوف أحمد بن بن عبد الله سليمان بن محمد التنوخي ولد في المعرة سنة 363 .وكان أبوه من أسرة وجيهة وتولى جده القضاء فيها و.كانت أمه أيضا من أسرة وجيهة يعرفون بآل سبيكة اشتهر منهم غير واحد بالوجاهة والأدب .وكانت المعرة تحت سيطرة الدولة الحمدانية بحلب وأميرها سعد الدولة أبو المعالي .

لم يتم أبو العلاء الثالثة من عمره حتى أصابه الجدري ، فذهب بيسرى عينيه وغشى يمناها البياض فكف بصره ، وهو طفل ، لقنه أبوه النحو واللغة في حداثته ، ثم قرأ على جماعة من أهل البلد ، ولما أدرك العشرين من عمره عمد إلى سائر علوم اللغة وآدابها فاكتسبها بالمطالعة والاجتهاد .وكان يقيم أناس يقرؤون له كتب وأشعار العرب، وأخبارهم ، وهو قوي الحافظة إلى ما يفوق التصديق.

وكان مطبوعا على الشعر فنظمه قبل أن يتم الحادية عشرة من عمره ، ولم يمنعه العمى من مباراة أرباب القرائح فيها اشتغلوا به حتى في ألعابهم ، فقد كان يلعب الشطرنج والنرد، ويجيب ويجيد لعبها ، لا يرى في العمى نقصا ، بل كان يقول احمد الله على العمى ،كما يحمده غيري على البصر، وكان يرتزق من وقف يحصل له منه 30 دينارا في العام ينفق نصفها على من يخدمه ، ورحل في طلب العلم على عاداتهم في ذلك العهد ؛فأتى طرابلس، واللاذقية، وسواهما من بلاد الشام ، وأخذ الفلسفة على يد الرهبان، ثم رحل إلى بغداد سنة 398 هجري وشهرته قد سبقته إليها ، فاستقبله علمائها بالحفاوة ، و اطلع في أثناء إقامته هناك على فلسفة الهنود و الفرس فضلا عن سائر العلوم ، حتى إذا نضج عقله وأمعن النظر في الوجود رأى الدنيا كما هي ، فذهب فيها وعزم على الاعتزال ليتسنى له التأمل والتفكير.

ثم أتى المعرى، ولزم بيته، وسمى نفسه رهين المحبسين ، وأخذ في التأليف والنظم ، وتدوين أفكاره وأرائه ومحفوظه في الكتب ، وانقطع عن أكل اللحم ، و اقتصر على أكل النبات اقتبس ذلك من آراء البراهمة الهنود ، فذهب مذهبهم فيه رفقا بالحيوان ، ولزم الصوم الدائم ، قضى أبو العلاء في هذه العزلة بضعا وأربعين سنة ، و أكله العدس، وحلاوته التين ، وهو يؤلف ، و ينظم ، والناس يتوافدون إليه ليسمعوا أخباره و أقواله و أخباره ، أو يكاتبوه في استفهام ويأخذون عنه العلم مجانا حتى توفاه الله سنة 449 هجرية.

2–مؤلفاته:

خلف مؤلفات في الشعر والأدب .أما أشعاره فأشهرها اللزوميات ، وسقط الزند، أما الأدب، وله فيه مؤلفات عدة أكثرها في اللغة، والقوافي، والنقد، والفلسفة، والمراسلات ضاع معظمها ، وما تبقى منها :

- رسائل أبي العلاء.
- رسالة الغفران.
-ملقى السبيل.
-الأيك والغصون

يقال أن الشعر دخل بعد المعري في طور جديد من حيث النظر في الطبيعة والتفكر في الخلق والحكمة الاجتماعية ، فانتقل الشعر على يده من الخيال إلى الحقيقة ، واختلف الناس في مناقب أبي العلاء وأخلاقه واعتقاده ، وله فلسفة خاصة في الدين و الطبيعة والخليقة ...كان يقبح الزواج... وكان من القائل بأن الحيوان وقد اتهمه بعضهم بالكفر مع أن اعترافهم بوحدانيته ظاهرة في كثير من أشعارهم..[1]

3–رسالة الغفران:

رحلة تخيلها أبو العلا في الجنة وفي النار كي يحل —في عالم خياله – مسائل ومشاكل ضاق بها في عالم واقعه من العقاب، والثواب، وتناسخ الأرواح، والغفران مع كثير من المسائل الأدبية، والشعرية، واللغوية ، يريدها مورد الساخر تارة، والناقد اللغوي المتبحر تارة أخرى، وليس العالم الغيبي فيها لا قالبا عاما لا رمزية فيه لعب فيه خيال أبي العلاء دورا فريدا في الأدب العربي، وفي الرسالة كثير من الحكايات العارضة التي من شأنها أن تضعف القيمة القصصية للرسالة.[2]

ويقول عنها جورجي زيدان " ولها شأن خاص من حيث موضوعها ، وهي فلسفة خيالية كتبها في عزته وضمنها انتقاد شعراء الجاهلية والإسلام وأدبائهم والرواة والنحاة على أسلوب روائي خيالي لم يسبق إليه أحد تخيل رجلا صعد السماء، ووصف ما شاهده هناك... ، وتقسم موضوعات رسالة الغفران إلى قسمين:أدبي و لغوي ونوادر خياليه عن بعض الزنادقة ومستقلي الأفكار و المتنبئين و نحوهم مم توالى ظهورهم في أثناء التمدن

---

[1]- نقلا عن جورج زيدان آداب اللغة العربية ،ج2، من ص 457 إلى ص 465.

[2]- محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، ص 230.

الإسلامي، ويتخلل ذلك حوارات مع الشعراء الجاهليين ، يسألون عما غفر لهم به. فيتذكر كل منهم شعرا قاله أو عملا عمله له به ، ومنها تسمية هذه الرسالة برسالة الغفران .كأن يعرض بما يرجوه من المغفرة لنفسه عما فرط منه أحيانا من الأبيات يعدها الناس إلحادا " [3].

وبإمكاننا أن نقسم قصة الغفران إلى أربعة أجزاء. في الجزء الأول يأتي المعري بمقدمة حول أنواع مظاهر الجمال واللذة في الجنة ، ويذكر أسماء من اللغويين والنحاة الذين دخلوا الجنة، ولم يبق بينهم شيئا من الخصومات والأحقاد التي كانت في قلوبهم في الدنيا حول قضايا نحوية وأدبية ولغوية. وفي الجزء الثاني يدور الحوار بين ابن القارح وبعض الشعراء الذين غفر لهم ودخلوا الجنة. وفي الجزء الثالث يدخل ابن القارح الجنة ويتحدث إلى أدبائهم ويسألهم عن بعض القضايا الأدبية .وفي الجزء الرابع يدخل الجحيم حتى يتكلم مع الأدباء المعذبين في النار. وفي الجزء الأخير يرجع إلى الجنة .و يواصل جولته ، ويستمتع بما لذاتها حتى يشعر بالتعب ويخلد إلى الاستراحة.

7-شخصيات رسالة الغفران:

هناك أنواع متعددة من الشخصيات واقعية أو خيالية، أو كلاهما إنسانية أو حيوانية، أو من الجمادات بعض الشخصيات ثابتة لا تتغير طوال القصة ، وبعض نامية تتغير وتتطور حسب الظروف والأحداث والشخصيات المسطحة لا يدخل القاص في طياتها ولا يعرضها عرضا معمقا بل عرضا سطحيا عابرا، ولا تؤثر فيها الحوادث ، ولا تتغير طوال القصة، ويعتمد الكاتب في رسم الشخصيات إلى طريقتين هي : الطريقة المباشرة أو التمثيلية .و في الطريقة الأولى يرسم شخصياته من الخارج و يشرح عواطفها ، وأفكارها و أحاسيسها ويعقب على تصرفاتها و، كثيرا ما يعطينا رأيه فيها. وفي طريقه الثانية ينحي نفسه جانبا، ويسمح للشخصية أن تكشف بنفسها عما في ضميرها .

والبطل الرئيسي في رسالة الغفران هو ابن القارح ، وبرز في الرسالة بصورتين متميزتين في القسم الأول ظهر في صوره تقترب إلى صوره البطل بمعنى الروائي الحديث ، لأنه البطل المركزي الذي تتمركز حوله كل شخصيات والأحداث في هذا القسم القصصي، و إنه منفعل هنا لأن أبا العلاء استخدمه قناعا يعبر به عن أرائه وأفكاره. ادخل ابن القارئ الجنة مرتين عن طريقتين مختلفتين: الأولى أدخل بسبب رسالته التي بعثها إلى أبي العلاء و أخبرنا أبو العلاء عن هذا الدخول في بداية الرسالة. أما المرة الثانية فيخبرنا بنفسه عندما بعث بعد الموت

---

[3]- جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ،ج2 ، ص 463 إلى ص462.

ويتحدث لنا عن مروره على الصراط ومعاناته يوم الحشر ، ويخبرنا هذه المرة عن توبته في الدنيا ، وانه أشهد على هذه التوبة جماعة من العدول، وهذا تصرف من ر جل يعيش في بيئة إسلامية .

يبدأ المعري رحلة ابن القارح في الجنة بذكر أسماء عدد من اللغويين والنحاة الذين يعرفونهم كندامى ابن القارح في الجنة من أدباء الفردوس " و قد اصطفى ندامى أدباء الفردوس كأخي ثمالة ، و أخي دوس، ويونس بن حبيب الظبي... فهم كما جاء في الكتاب العزيز" ونزعنا ما في صدورهم من غل على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين " و أبو بشر عمرو بن عثمان سيبويه ، قد رخصت السويداء قلبه من الضغن على علي بن حمزة الكسائي ، و أصحابه لما فعلوا به في مجلس البرامكة " [4].

ويمكن تقسيم الإبطال والشخصيات الثانوية في هذه الرسالة إلى ثلاثة أقسام رئيسية:

أ–الشخصيات الإنسانية وتشمل أنواعا:

1–أولياء الله في المحشر والجنة :وهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، والإمام علي، وفاطمة و، حمزة سيد الشهداء و آدم أبو البشرية ، وإبراهيم خليل الله.

اللغويون والنحاة : في الجنة أبو العباس المبرد ، وابن دريد ، ويونس ابن حبيب ، والأخفش الأوسط ، وأبو العباس المعروف بثعلب ، ومحمد بن يزيد ، وسيبويه، و الكسائي ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى ، والأصمعي.

–الشعراء في الجنة : وهم : الأعشى ، و زهير بن سلمة، وعبيد بن الأبرص، و عدي بن زيد ، و أبو ذؤيب الهذلي، و النابغة الذبياني ، والنابغة الجعدي، ولبيب بن ربيعة ، وحسان بن ثابت، وتميم بن مقبل العجلاني وعمرو بن أحمد الباهلي ، و معقل بن ضرار الشماخ ، وعبيد بن الحسين ، وحميد بن ثور ، و جران العود النميرى ، والحطيئة ، والخنساء ، وشعراء الرجز :رؤية والعجاج ، وأغلب بني عجيل ، و أبو النجم ، وحميد الأرقم ، و عدافر بن أوس ، وأبو نخيلة.

–الشعراء في الجحيم : و هم امرؤ القيس ، وبشار بن برد، و عنترة بن شداد ، وعلقمة بن عبيدة ، وعمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة ، وطرفة بن العبد ، و أوس بن حجر أ، بو كبير الهذلي، وعامر بن الحليس، وصخر والأخطل، والمهلهل، والمرقش الأكبر، والمرقش الأصغر ، والشنفرى، وتأبط شرا.

–المغنين والمغنيات في الجنة : العريض ، ومعبد ، وابن مسجح ، وابن سريج ، وإبراهيم الموصلي ، وإسحاق الموصلي، و بصيص ، ودنانير ، و جرادتين.

---

[4]- المعري ،رسالة الغفران ، من 169 و ص170.

-**شعراء الجن** :خيتعورمن بني شيصبان.

-الحيوانات في الجنة: الحية والذئب والأسد.

ومن الشخصيات العجيبة في جنة أبي العلاء الأسد الذي يفترس حيوانات الجنة ، وهو يتكلم بإذن الله، ويشرح لابني القارئ أنه يتلذذ بافتراس وحوش الجنة، وأنها بعد افتراسها تعود إلى الحياة لأن الموت والفناء لا وجود لهما في الجنة ، وهذا من عجائب رحمة الله على أهلها " فإذا هو أسد يفترس من صيران الجنة و حسيلها فلا تكفيه هنيدة، ولا هند، أي مائة و مئتان ،فيقول في نفسه لقد كان الأسد يفترس الشاة العجفاء ، ويقيم عليها الأيام لا يطعم سواها شيئا فيلهم الله الأسد أن يتكلم ، وقد عرف ما في نفسه ، فيقول يا عبد الله ، أليس أحدكم في الجنة تقدم له الصحفة ، وفيها البهط ، والطريم مع هنيدة، فيأكل منها مثل عمر السماوات والأرض، يلتذ بما أصاب ، فلا هو مكتفي ولا هي فانية، وكذلك انأ مفترس ما شاء الله ، فلا أتأذى الفريسة ولا ناب، ولكن تجد من اللذة كما أجد بلطف ربها العزيز" [5].

و نرى في مشهد آخر في جنة أبي العلاء حي عالمة بعلم القراءات في روضة مونقة، تلعب فيه الحيات التي يتعجب ابن القارح من تواجدها في الجنة أشد التعجب وتتحدث الحية عن الحسن البصري وقراءته، وهكذا تتحدث عن القراءات كعالم لغوي و، عن رواية الشعر ، كأديب وفي الحقيقة يشرح أبو العلاء المعري آراءه في هذا المجال على لسان الحية.

8-الزمان والمكان الذي ألفت فيه:

تقول عائشة عبد الرحمن " غير مجهول أن الغفران أمليت بمعرة النعمان على التحديد ، في أخريات الربع الأول من القرن الخامس الهجري " [6].

ويقول ابن القارح "وكيف أشكو من فاتني وعالني نيفا وسبعين سنة" [7].

تدل رسالته على أن الغفران ألفت ما بين عامين 422 و 424 هجرية أين كان عمره يزيد عن السبعين سنة.

---

[5]- المعري رساله الغفران ، 304.

[6]- عائشة عبد الرحمن الغفران دراسة نقدية ،ص44.

[7]- ابن القارح، رسالة ابن القارح، ص66.

وتقول إحدى الدراسات:" وقد أملى المعري رسالته هذه بعد مضي قرابة ربع قرن من عزلته ، وكانت حينها شهرته قد شاعت فراسله الكثير من المستفسرين عن خصائص فكره ، وقد كان من بين هؤلاء المحدث علي بن منصور الحلبي المعروف بابن القارح الذي وجه إليه من حلب رسالة يستوضح فيها عن بعض المسائل الفقهية وبدلا من أن يجيبه برسالة عادية جعله يصعد الى السماء ويرى بنفسه كيف جرت الأحكام الالهية ، ويسأل ابن القارح المخلدين في الجنة بما غفر لكم ، و المخلدين في النار بما لم يغفر لكم ماذا جنيتم " [8].

ويوافق دارس آخر هذا الرأي "كتبها سنة 424 هـ(القرن الحادي عشر ميلادي)يرد بها على رسالة رجل يريد الشهرة اسمه علي بن منصور القارح الحلبي، الرسالة كثيرة الاستطراد، ويعود سبب ذلك إلى سعة اطلاع المعري وغزير ثقافته وإلمامه بشتى معارف سابقيه ، وقد أحيا أبو العلاء في رسالته ألفاظا كثيرة كانت مواتا، وجاء بالنادر من اللغة ، والغريب والشاذ من العبارات .كما يظهر جليا علم الشاعر بالشعر ورواياته ونقده، وبالأماكن والجماعات، والتاريخ، والقرآن و تفسيره" [9].

تؤكد كل الآراء أن سبب المباشر لتأليف رسالة الغفران هو رسالة ابن القارح ، إذن التاريخ يعود إلى عصره.

9–موقف النقاد القدامى من الرسالة:

يرجع سبب إهمال النقاد القدامى لهذه الرسالة إلى الاتهامات التي وجهها أعداء أبي العلاء وحساده إليه خاصة بعد كتابة الرسالة؛ حيث ادعى البعض أنه سخر من المعتقدات الإسلامية فيما يتعلق بالحياة الآخرة ، والجنة، والجحيم، ، أنه دافع عن شعراء الزنادقة ، و ادعى بعض آخر أنه دافع عن الشعراء الزنادقة ، و بررهم وتحدث عن المغفرة لهم. وأخذ عليه فريق آخر حكمه على مصائر الشعراء في الآخرة موزعين بين الجنة والنار ووصفوا الرسالة بأنها جريئة خلطه فيها الجلد الهزل. أدت العداوة والبغضاء إلى أنهم كانوا يعتقدون بأن لعن أب العلاء للزنادقة كانت من قبيل الكيد والرئاء ، وأنه كان بنفسه ملحدا زنديقا . ملحدا" [10].

وهكذا نرى أن أبا العلاء المعري تعرض لتهمة الزندقة والإلحاد لأنه تجرأ على تخيل الحياة الأخرى، وكان أول من كتب في الأدب العربي رحله خيالية إلى الجنة والجحيم تصور فيها مصير بعض الشعراء واللغويين في الجنة

---

[8]- ناديه تيحال: أدب التمرد عند أبي حيان التوحيدي وأبو العلاء المعري أطروحة الدكتوراه جامعة الجزائر 20032003، ص 124.

[9]- جعفر خريباني: أبو العلاء المعري رهين المحبسين دار الكتب العلمية بيروت لبنان طاولة 1990 صاد 61

[10]- عائشة عبد الرحمن ،ص 69.

والنار فلم يهتم بالرسالة كثير من النقاد والدارسين العرب خلال القرن الثالث لأن صاحبها كان متهما في دينه في رأي البعض.

أما النقاد المحدثون فقد بدأت رحلتهم مع رسالة الغفران بداية " القرن التاسع عشر فقد بدأ اسم رسالة الغفران يتردد في الأوساط الأدبية الأوروبية مقترنا باسم الكوميديا الإلهية لدانتي على سبيل لمح شبه بينهما أولا ثم على سبيل المقارنة المنتهية إلى أن دانتي متأثرا بأبي العلاء ، وأول من عرف هذه الرسالة المستشرق الانجليزي نيكلسون في المجلة الآسيوية الملكية يوليو 1899 ، وكان النص الذي نشره نيكلسون سنة 1902 هو النص الذي اعتمد عليه في دراسته المستشرق الإسباني القص ببلاسيوس الذين نشرها في مدريد سنة .1919 وقرر أن أصول إسلامية من بينها رسالة الغفران قد تكون أسس الكوميديا الإلهية .وأحدثت الدراسة دويا في الأوساط الأوروبية وأخذت رسالة الغفران من ذلك الحين مكانها في دراسات النقاد العرب" [11]

10–تأثير رسالة الغفران في الأعمال الأدبية:

ذهب الدارسون مذاهب شتى في هذا الموضوع مذاهب شتى ؛فقد رأى محمد غنيمي هلال أن الشبه بين رسالة الغفران والكوميديا الإلهية لدانتي لا يرتبط بتأثير الأول على الثاني يقول :" لا شك أن رسالة الغفران تشبه الكوميديا الإلهية لدانتي في نوع الرحلة وأقسامها ، وكثير من مواقفها .وقد دفع هذا التشابه بعض الباحثين إلى القول بأن أبا العلاء، وهذا خطأ إذ لا يوجد أي دليل على اطلاع دانتي على رسالة أبي العلاء .و قد سبق أن بينا ء أن مصدر دانتي العربي الإسلامي كما كشفت عنه البحوث الحديثة ولا مجال الآن لخلق آراء أخرى لا تستقيم مع البحث العلمي. و أمام هذا التشابه بين رسالة أبي العلاء و كوميديا دانته فقد يكون راجعا إلى أنهما أفاد من حكاية الإسراء والمعراج، وفي هذه الحالة يكون لأبي العلاء فضل الإفادة أدبيا من التراث الإسلامي قبل دانتي " [12].

أما جورج زيدان فيرجع إفادة الكثير من الأعمال الأدبية العالمية من رسالة الغفران يقول " فتخيل رجلا صعد إلى السماء ، و ما شاهده هناك كما فعل دانتي في شاعر ايطاليا في الكوميديا الإلهية ، وما فعل ميلتون الانجليزي في الفردوس المفقود ، لكن أبا العلاء سبقهما بضعة قرون ،لأن دانتي توفي نحو سنة 720م، وميلتون

---

[11]- فاطمه بنت الشاطئ ،ص 423 424.

[12]- محمد غنيمي، هلال الأدب المقارن ،ص 230.

نحو 1084م ، وتوفي أبو العلاء سنة 449 هـ ، فلا بدع إذا قلنا باقتباس هذا الفكر عنه .وأقدمهما دانتي لم يظهر إلا بعد احتكاك الإفرنج بالمسلمين. والايطاليون أسبق الإفرنج إلى ذلك "[13].

[13]. جورج زيدان تاريخ آداب اللغة العربية ،ج2،ص 462.